منهاجيات محمد مفتاح السيميوطيقية وصيرورتها في مشروعه النقدي السلالي

د.بوخاتم مولاي علي

كلية الآداب والعلوم الانسانية/ جامعة سيدي بلعباس

إن أولى خطوات التمييز حسب المراحل التي حددها "محمد مفتاح" في مساراته، تأتي من خلال إقامته المنهج السيميائي كحاجز معرفي بين المراحل الخمسة التي قطعها، والمتمثلة في مرحلتين أساسيتين إحداهما "جمالية" والثانية "دينامية":

1. المرحلة الجمالية:

إن المرحلة الجمالية تعد مرحلة أساسية في مساراته الفكرية، حيث دخل فيها مجال النقد السيميائي المعاصر، محاولا الاخلاص لهذا المنهج.

وهي مرحلة، استهلها بمؤلفه "في سيمياء الشعر القديم، دراسة نظرية وتطبيقية"، ومصدر يشكل في حقيقته جملة من الدروس كان قد ألقاها على طلبته خلال السنة الدراسية (1981- 1982) في جامعة الرباط.

وقد خصص "محمد مفتاح" هذه المرحلة لتحليل الشعر وحده، كما أراد الخروج عن الاتجاهات المسافية في التحليل، ليهتم أساسا بالبناء الفني للعمل الأدبي والشعري بوجه خاص. معتبرا ان "النص الأدبي يتألف من مجموعة كبيرة من العناصر المتباينة، وانه لا تكمن فيه غاية خارجيته محدودة." (1)

ومن أجل ذلك، أصر الباحث على ضرورة دراسة العمل الأدبي انطلاقا من الشكل إلى المضمون، مبرزا إشارات وملامح تؤكد هذا الاهتمام، ومحاولا الدخول إلى "المرحلة الجمالية" في الكتابة النقدية، بكتاب يشكل أولى لبنات مشروعه النقدي بخصوصياته المتميزة، وهو "الكتاب النواة والبذرة الذي حمل بين دفتيه في حينه إلى حد الساعة تباشير مغامرة أو دسيسة منهجية أخرى ستظل قائمة وواردة باستمرار على الدوام."(2)

بمعنى آخر، فقد دعم عمله بمجموعة من الاجراءات المنهجية الاخرى، التي تحقق فعالية وقدرة على التحليل، برؤية علمية شمولية. محللا من خلالها البنية الشعرية "أصواتا ومعاجميا وتركيبيا، واستند في ذلك إلى مفاهيم لسانية وسيميائية وشعرية منتقاة، كما استند إلى مفاهيم وقواعد نحوية وهدفه في ذلك البرهنة على الافتراضات التي احتوتها الاطروحة

"الخطاب الصوفي" ووظف مفاهيم قديمة وحديثة منتقاه لقراءة الشعر العربي القديم والكشف عن جمالياته وموقعه ضمن النسق الثقافي العام." (3)

وبغية الكشف عن هذا التطور المنهاجي الذي أصبح يسم الكتابة النقدية في المغرب وفي سائر البلدان العربية، أورد الباحث قوله "وقد اخترت قصيدة أبي البقاء الرندي "النونية" لتحقيق نياتي ولتطبيق عناصر نظرية نحتها مما ورد عند بعض النقاد العرب القدامى من مبادئ، ومما انتهت إليه الدراسات الشعرية السيميائية... فالمحاولة – إذن- تدخل ضمن القراءة المتعددة." (4)

وإذا كان "محمد مفتاح"، من خلال هذه الرؤية المنهجية، قصد التعبير عن رغبته في النقد الالسني لأن يكون مطمحا وبديلا لبعض الاتجاهات النقدية، فإنه أراد كذلك التعبير على "القراءة المتعددة" وقناعته الدعوة إلى التحليل النصي المنفرد قبل التركيب واختيار نموذج محدد، ومحدد للتوصيف والتفسير والتأويل بالمعنى البنيوي الاجرائي، دون أن يغيب عن الوعي الدارس تاريخ النص الذي تحكم فيه إنتاجه أو يغيب السياق الذاتي والمجتمعي والانطولوجي من خلال نص أبي البقاء الرندي(5).

إضافة إلى هذه الملاحظات اتكأت دراسته على أربعة عناصر مستوياتية هي:

- دراسة المواد الصوتية.
- دراسة المعجم (الكلمة الشعرية).
- التركيب (النحوي والبلاغي).
- المعنى أو المقصدية (المباشر وغير المباشر).

ومن خلال هذه العناصر المحددة، نزع الباحث إلى القراءة المتعددة والمركبة في ضوء (نونية أبي البقاء الرندي)، محاولا المزاوجة بين عناصر تراثية وأخرى شعرية سيميائية، مستفيدا من آراء دراسيين عرب وأجانب و بغية إعطاء المعالجة قدرها الفكري في التراث العربي، وقف في القسم الاول على مجموعة من المعطيات الاولية، دارسا من خلالها القصيدة، ومتفهما وضعها في بيئتها، وفي زمانها قبل أن يحللها وفق العناصر التالية:

- دراسة الشخصية باعتبار الشاعر "لم يكن بمعزل عن أحداث عصره، وذلك الان،كسار المستمر، وإنما كان على اتصال وثيق بالحكم في غرناطة." (6)
- دراسة ظرف القصيدة، ومن خلاله تلمس المناسبة من عدة مصادر.
- دراسة حياة القصيدة مع الموازنة بين روايتين: "الازهار الرياض". "الذخيرة السنية"(7) قبل أن يرجح إحدى الروايتين.

- ومن ثم ،ذكر نص القصيدة في مطلع الدراسة، وهي قصيدة تحتوي على (ثلاثة وأربعين بيتا)، وفي ما يتعلق بنمطية قراءة القصيدة، على ضوء معايير عصرها، فقد اعتمد الباحث على آليات أخرى أهمها

- **الفهم بالموازنة**: وهي محاولة أراد من خلالها المزاوجة والتوفيق بين الدراسات النقدية، العربية والدراسات الحديثة مثل التداولية. وهذا ما عبر عنه بقوله "لن نحاول أن نتجاوز ما تركه المسلمون من معايير لصياغة الشعر وفهمه إلى النظريات الحديثة في تحليل الشعر." (8)

- ومن هنا جاءت استراتيجيته المنهاجية تنهض على قاعدة التوفيق(9) بوصفها استراتيجية جزئية جديدة في مسلماتها ومفاهيمها، استثمر من خلالها ما تركه القدماء، وما توصل إليه المحدثون في اللسانيات.

- **معايير الشعر**: ومن خلاله درس أهم المبادئ التي انتهى إليها النقاد في الشعر العربي، مثيرا أنواعا من الخصوصيات مثل: الابتداء (المطلع)، حسن التخلص (الاستطراد) والاختتام (المقطع). ومما لحق بهذا التحليل من ملامح منهجية لسانياتية، يلاحظ اعتماد "محمد مفتاح" على بعض الاجراءات البنيوية والسيميائية، لا سيما تلك التي ساعدته في تحليل الخطاب الشعري تحليلا شموليا.

- أما الملامح الاولى التي توخاها ضمن "المنهج البنيوي الشكلاني"، فهي المتمثلة إقتداه بالدراسات الغربية في هذا المجال، مبرزا ذلك في النتائج والمعطيات العلمية التالية:

1. ان الاصوات تمتلك ذاتيا لخصائصها الطبيعية والصوتية بخاصة، ولتداعي المتشابهات التي تضاف إلى تلك الخصائص، وهي مسألة تفصح عن تأثره بالطبيعيين، لا سيما في اشكالية "الاصوات المحاكية" (Onomatopeia) في التراث الاغريقي قديما، وعند بعض تلاميذ "فرديناند دي سوسير" ضمن الاتجاه البنيوي حديثا. (10)

2. توزيع الاصوات بكيفية اعتباطية، كفكرة مطابقة تماما لأفكار " فرديناند دي سوسير" ضمن نفس الاتجاه السابق.(11) والدليل على هذا السلوك المنهاجي "البنيوية الحديثة" يلخصه قوله "أن هناك الفاظا متحدة اللفظ والمعنى، وأن هناك الفاظا أخرى تشترك في اللفظ مع اختلاف في المعنى." (12)

وهكذا تتواتر ملامح تأثره بالمنهج ذاته في مسائل متعددة مثل:

أ. **النبـــر**: حيث فيه درس نونية "أبي البقاء الرندي"، ودرس التفعيلة المناسبة التي اختارها "الناص"، وهي المتقلبة بتقلب نفسيته بين الفرح والحزن. (13)

ب. **الايقاع**: وقد تناول فيه محمد مفتاح "الوزن والقافية" معتمدا آراء البلاغيين والنقاد في "الصناعة الشعرية"(14) محاولا التوفيق بين آرائهم وآراء أخرى غربية لعلماء بنيويين وشكلانيين، أبرزهم (يوري لوتمان) و(جاكوسون). وجملة آراء هؤلاء تتخلص في كون "البنية الايقاعية تمارس على النص تأثيرا خاصا بها حيث تبديل الكلمات وإحلال أخرى محلها، وأن للبحر نوعا من التوجيه إلى الغرض المقصود والمعجم المعين." (15)

وخلاصة هذا المسعى، أن "البحث في الوزن والقافية عرفتهما جلّ الثقافات العالمية التي ترى في الشعر = النثر + الموسيقى، ومن ثم فإن الوزن وما إليه يكون جوهر، الشعر القديم." (16)

أما في مسألة "المعجم"، فقد اهتدى الباحث إلى التوفيق بين آراء النقاد العرب، وآراء الدارسين المحدثين اللسانياتيين والشعريين، مستندا في وجهة نظر، الظاهراتيين ممن تأثر بنظرياتهم وأدرك معانيها في هذا المقام، مثل "جان كوهين" (17) الذي كثيرا ما شمل الفكر البنيوي في تحليل الخطاب.

وفي مسألة "التركيب"، هذا المعطى الاسلوبي(18)، اهتم محمد مفتاح بوجهة نظر المدرسة الشكلانية، من خلال أبرز أعلامها مثل "جاكبسون" من المحدثين، وغيرهم من القدماء الذين توافقت أفكارهم معها مثل "ابن جني، وعبد القاهرالجرجاني". لأن "جاكبسون" هو الذي وضع اليد في عدة أبحاث على مبدئه المعروف "إسقاط محور التعادل على محور التركيب" (19)، التعادل الذي لا يشمل الوزن فقط وإنما يشمل التركيب والمعنى معا.

للتوسيع في هذه المسألة، تناول الباحث مسألة "المعادل النحوي" ودوره في جمالية الشعر، وذلك من خلال آراء بعض البنيويين مثل (يوري لوتمان) في كتابه (بنية النص، الفني) (20)، قاصدا استثمار آراء هؤلاء اللسانياتيين في الاتجاه الشعري، وواضعا اليد ثانية على (التركيب البلاغي) عند العرب والغربيين من أعلام المدرسة الشكلانية الروسية والمهتمين بوصف الشعر وتأويله، قبل أن ينبري إلى عرض آراء المفكرين واليونان في مسألة (المحاكاة والتخيل)(21).

آخر المسائل في الدراسة (المقصدية) (Intentionalité)، بوصفها مفهوم "يحدد كيفية التعبير والغرض المتوخى، وهي البوصلة التي توجه تلك العناصر وتجعلها تتضامن وتتظافر وتتجه إلى مصدر عام"، فالمقصدية تحدد اختيارا الوزن والالفاظ الملائمة، وتركيبها بطرق معينة لتؤدي المعنى المتوخى. (22)

وامتدادا لمنهج "التوفيق" بين القديم والحديث، عاد "محمد مفتاح" إلى آراء الشكلانيين مثل "رومان جاكبسون" في مسألة وظائف الاتصال(23)، معتمدا الوظيفة الشعرية

في مقام التحليل، محاولا التفريق بين حدود الشعر والنثر، وعرض آراء التداوليين في هذه المسألة، لأن هؤلاء — في نظره — يحترمون العقدة بين المتكلم (الباث) والمخاطب (المرسل إليه) أو المتلقي ويحرصون على (مبدأ التعاون). (24)

بهذه العناصر، في القسم الاول، يكون "محمد مفتاح" قد انهى حديثه عن بنية الخطاب الشعري وتركيباتها وموادها، خالصا إلى القول "إتجهت محاولاتنا هذه إلى أخذ الراجح من مبادئ تلك النظريات وصياغته في بناء عام، وقد إلتجأنا أحيانا إلى التحليل السيميائي متممين به النظرية الشعرية إذ وجدنا في بعض الابيات عناصر سردية." 25)

أما في القسم الثاني من الدراسة، فقد اعتمد الباحث على بعض إجراءات المنهج السيميائي في صورتها المجزأة، لا سيما في دراسة "مسألة الاسطورة - التاريخ"، بحيث درس (بنية، التناقض والتضاد) في مطلع القصيدة (26) معتمدا (المربع السيميائي) لدى "قريماس"، موضحا المتقابلات والمتضادات في البنى، لا سيما في البنية الموجهة للنص (المطلع).

ومن الملامح الأخرى في المسألة ذاتها (الاسطورة، التاريخ)، لاحظ محمد مفتاح امتزاج العناصر الشعرية بالعناصر السردية، ضمن (بنية التشابه)(27)، مستضيئا ببعض النظريات البنيوية التي من أبرزها نظرية "جان كوهين".

وبغية البرهنة على التناول السيميائي للقصة رصد محمد مفتاح الملاحظات التالية:

" أن النقاد العرب القدامى أجازوا الاستعانة بالقص" (28)

أن الشاعر "إستعمل لفظ حكي الذي يعني السرد والمسرود إليه غالبا." (29)

أن بعض المحدثين ناقشوا مشكلة الحدود، والعلاقة بين الشعرية والتحليل السيميائي، ولذلك لخص أفكاره ضمن إتجاهين إثنين هما:

1. إتجاه يرى أن الشعر الملحمي أو الغنائي، يحوي كثيرا من الوظيفة الشعرية، وأن ما توفرت فيه الشعرية لا يقبل التناول السيميائي.
2. إتجاه يدمج الشعرية في التحليل السيميائي.
3. ومن ها هنا أوجز الباحث موقفه من الاتجاهين قائلا "وقد ملنا إلى الاخذ بالاتجاه الاول فاقتبسنا بعض مسلمات التحليل السيميائي لعرض هذا المقطع علما بانه يفتقد كثيرا من الشعرية وله ملامح سردية، ومع ذلك فإننا لم نعتبره قصة خالصة، وإنما قصة شعرية." (30)
4. اما بخصوص تجليات البحث السيميائي في السرد التي اعتمدها الباحث يذكر:(31)

1- منهاج "العوامل" بعناصره الستة: (الفاعل — الموضوع — الفاعل — المآمور — المعوقات — البطل - المساعدات).

2- رصد علاقات الاتصال والانفصال، والانتقال في الأحوال

وهكذا استمر الهاجس النقدي لدى محمد مفتاح، حيث واصل انشغاله بالمنهج السيميائي، حتى بلغ وجها آخر أكثر اكتمالا، فألف كتابه (تحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناص). كدراسة تشكل مثالا نموذجيا عينيا في القراءة المتعددة التي تعكس بدورها التعددية النقدية السائدة في المغرب، وفي تنوع الكتابة والخصوصيات الاجتماعية التي يعيشها المفكر المغربي، التي مردها إلى الجدل السياقي والحوار المستمر بين أجيال المغاربة، ثم حوار الثقافات والاشكال الفنية والشعرية والبنيوية والسيميائية، فضلاعن اختلاف الاذواق. وتبيان ذلك قول الباحث "نحن نعيش في المغرب تعددية وليس لأحد أن ينفي هذه التعددية، أكتب ما شئت." (32)

ومن خلال هذا التصور حدد منهجه في مطلع الدراسة، راصدا مكونات الخطاب الشعري في شكلها التفريعي المتألف من عدة عناصر، وهي في حقيقتها عناصر مكونة للخطاب، اعتبرها إجراءات حلل في ضوئها قصيدة "ابن عبدون" بمنهج سيميائي مركب، مستمدا مفاهيم النقد السيميولوجي من مدارس عديدة، وأعلام مشهورين أبرزهم: قريماس، ريفاتير، جاكوبسون، وجان كوهين وغيرهم.(33)

ويلاحظ، أن التعددية المنهاجية التي دعا إليها الباحث ليست تلفيقية بقدر ما ترمي إلى وحدة في الآفاق وفي التصور، ذلك أن مسألة التركيب هاجس عالمي، لأن السيميولوجية في – اعتقاده – ليست سيميولوجيا "قريماس"، بل تلك النظرة التي تطبق مفاهيم بيولوجية ومفاهيم فيزيائية، ومفاهيم الذكاء الاصطناعي، هي سيميولوجية تركيبية، وما هاجس التركيب الا نموذجا عالميا، ينبني على توقد ابستيمولوجيي. (34)

ومن هذا التعدد، سعى الباحث إلى إقامة منهجه السيميائي في تحليل الادب، معتبرا الاخذ بالاجراءات السيميائية مجزأة أمر لا يفي بحاجة النص، ما لم يتوج بتركيب بين المناهج كاملة، كما أن وحدة المنهج قد تقي من الانتقائية والتلفيقية وتبيان محاسن هذه التعددية. (35)

وتحت وطأة تأثير هذا التركيب المنهجي، استجاب الباحث للهاجس الذي ظل يراوده في ظل هيمنة النظرية البنيوية، معتمدا المناهج اللسانياتية والشعرية والسيميائية، واقفا ثلاثة مواقف مختلفة في تناول الخطاب الشعري "أولها الاعتماد على ما ثبت الاجماع عليه، وثانيها المناقشة لتبيان الثغرات أو التضخم أو الاراء الخالصة، وثالثها إعادة صياغة الاشكال الذي يمكن الاجابة عنه بكيفية ملائمة." (36)

وبمثل هذا السلوك المنهاجي، تمثل الباحث الاجراءات السيميائية بحسب المستويات والفصول التالية: (المستوى الصوتي والمعجمي والتركيب والتناقصي والتفاعلي والمقصدية) كمسائل درسها نظريا ودرسها تطبيقيا في القسم الثاني.

وفيما يتعلق بأهم القوانين والمبادئ التي وظفها واستند إليها في مقاربة هذا النص الشعري، تجلت مبادئ عامة مسبقة أو مبنية على مجموعة من النظريات المختلفة بخلفياتها الابستموولوجية المتعددة، والمؤكدة بقوله "أدى بنا هذا الشعور اي (أحاديث المنهج) بقصور النظرية الاحادية إلى اختيار الامر الثاني وهو التعدد رغم ما يتضمنه من مشاق ومزالق"(37) وقبل الفصل في المسائل التي ذكرها، حاول الباحث تبيان خلفيات بعض المناهج، كما حاول التركيب فيما بينها في مدخل الدراسة، والتي في معظمها تنضوي ضمن النظريات اللسانياتية المتمثلة فيما يلي:(38)

1. التيار التداولي بشقيه، نظرية "الذاتية اللغوية"، ونظرية "الافعال الكلامية".
2. التيار السيميوطيقي المتعدد المشارب والنظريات.
3. تيار الشعرية، تناول من خلاله المساهمات في النظرية الشعرية الحديثة

وهكذا سعى الباحث إلى التركيب بين هذه التيارات اللسانياتية الاساسية، مستمدا منهجه من الاتجاه الانجلوساكسوني الذي أفرز تعددية نقدية مشروطة، قائلا "إن كل عملية تركيب تتطلب الرجوع إلى الخلفيات الابستيمولوجية والتاريخية، وبدون ذلك يصبح الامر تلفيقا." (39)

ومن ذلك أن اشترط في هذا التركيب شروطا، أراد من خلال التغلب على العواقب الابستيمولوجية والاجرائية في التحليل مستثمرا هذه النظريات استثمارا إنتقائيا منسجما، قد تتضح معالمه، في مستويات الدراسة التالية:

ففي القسم الاول: درس مبدئي (التشاكل والتباين) كمفهومين سيميائيين، معتبرا أن الخطاب "لا يخلومن موجهات ومنه الخطاب الشعري، ولا يخلومن المورفولوجيا، ولا يخلومن مقصدية."(40) غير أن التشاكل الذي تبناه، سواء في صورته الضيقة لدى "قريماس" أم الموسعة لدى "راستي"، هو إجراء متنوع الاشكال، فيه التشاكلات الصوتية والنبرية والمنطقية والمعنوية، وسواها من الانواع التي تبناها لدى "جماعة مو" (Groupe M). (41)

أما في المستوى الصوتي، فقد نقل "محمد مفتاح" مفهوم التشاكل من الميدان العلمي إلى الميدان اللغوي، محددا "التشاكل المعنوي" اي، تشاكل التعبير والمضمون معا (42)، معتمدا دراسات صوتية في معالجة بعض المسائل مثل:

- الطريقة الاحصائية الشاملة عند (راستي) للمعجم.

الاحصائية غير المظبوطة التي تراعي عنصر التشاكل والتراكم، ومكان الصوت في سياقة المعجمي والتركيبي. (43)

وتماشيا مع المعطيات المنهجية، إستفاد من عناصر أخرى مثل:

معطيات لغوية: كرمزية تشاكل الصوت، ورمزية تشاكل الكلمة، ورمزية اللعب بالكلمة.

معطيات موازية للغة، مثل، الوزن بعناصره (المقاطع والنبر).

ومن هنا خلص الباحث إلى القول أن "التشاكل الصوتي يتحقق في الكلمة ولكنه لا يؤدي وظيفة كاملة، الا إذا تجلى في تركيب، والنبر يقع في الكلمة وفي التركيب ولا يشخص النبر بكيفية جيدة الا ضمن سياق ومساق." (44)

وفي مستوى آخر، تناول "محمد مفتاح" التشاكل والتباين على مستوى "المعجم مستفيدا من الاراء السيميوطيقية "الانجلوساكسونية" وبعض الدراسات المنجزة ضمن هذا التيار، ذلك أن المعجم كلمة اي نص كان، ويحتل مكانا مركزيا في اي خطاب، ولذلك اهتمت به الدراسات اللغوية قديما وحديثا، وجعلته مركز الدراسات التركيبية والدلالية." (45) وفي هذا السياق درس المعجم من زاويتين مختلفتين:

الاولى تركيبية: ترى في المعجم "مكونا أساسيا وجوهريا تؤسس عليه بنية الجملة النحوية."(46)

الثانية دلالية (ادبية): ذلك أن النظر إلى المعجم من هذه الزاوية "يصبح أمرا وجيها يستمد مشروعه من المنهاجية التي تتحكم فيه، ومن الغايات التي يتوخاها." (48)

أما في التركيب: فقد درس الباحث الخطاب الشعري، بوصفه أسلوبا ذوتركيبة لغوية له ذات قيمة جمالية هامة، وهو الذي يحمل الخطاب الأدبي عمل فني من خلال "بنية التركيب" وتناسقه وانسجامه الداخلي وهذا ما يتفق مع "علم الاسلوب" الذي يعد الاسلوب التركيبي إجراءا أساسيا في بناء النص.

ومن هنا تناول التركيب من زاويتين أحدهما بلاغية، والثانية نحوية، وضمن الاولى، درس الاستعارة في الضوء الاتجاه اللسانياتي على يد أبرز أعلامه مثل "جاكوسون"، "جان طامين"، "مولينو"، و"ميتز طامبا" وعند التوليدين "تشومسكي" و"فون دايك" وسواهم من الفلاسفة، فضلا على أصحاب النظرية الجشتطالتية مثل "لاكوف"، "جونسون"، و"بالمر". (49) كما اعتمد منهج التركيب بين هذه الاتجاهات اللسانياتية المختلفة، مبينا كيفية جعل هذا الاختلاف رحمة في الدراسة النقدية.

وفي الفصل السادس، حاول الباحث إغناء الاتجاه السيميائي والتوسع في مجالاته معتمدا (التناص) كمفهوم سيميائي حديث يقترب كثيرا من عدة مفاهيم مثل: الادب المقارن، المثاقفة، دراسة المصادر والسرقات (50)، ثم حاول التوسع في النصوص اللسانياتية الفرنسية (51)، متعرضا إلى عدة أضرب من التناص أهمها: (التناص الضروري، الداخلي والخارجي، آليات التناص، التناص في الشكل والمضمون والتناص، ثم المقصدية).

وهكذا خلص "محمد مفتاح" إلى عد هذه الآلية معيارا منهاجيا في تحليل الخطاب، و"وسيلة تواصل لا يمكن أن يحصل القصد من اي خطاب لغوي بدونه." (52)

كما تظهر إشارات "المنهج السيميائي" في مستوى "التفاعل" حيث قدم الباحث إجراءات نقدية تدعم مسعاه المنهاجي، مستمدا أفكاره من بواعث التيارات اللغوية والمنطقية التي تزخر بتراكم معرفي هائل أهمها:

1. تيار موريس، ومن اعلامه "بنفنيست"، "لانسن" و"اريكسيوني". (53)
2. تيار فلاسفة أوكسفورد "أوستين" (54)
3. تيار التوليديين، المهتم بالتفاعل، من أبرز ممثليه "أوهمان" و"فان ديك" (55)

وبغية الضبط المنهجي، ذهب الباحث إلى الجمع بين الاراء قائلا "إننا سنحاول التركيب بينها مستخلصين منها مبادئ أكثر تجديدا تنطبق على اللغة العادية وغيرها..." (56)

4. تيار السرديين، تضمن المكونات السردية اي (الافعال الكلامية للسارد) وهيأة المسرود والعلاقة الحوارية بين الاشخاص في النص الشعري، معتمدا النظرية السيميوطيقية في المشروع (قريماس)، ذلك أن "السردية العامة تعد مبدء منظما لكل خطاب، وهي تتكون من نبرات هي المكونات الاساسية على المستوى العميق للعملية السيميوطيقية." (57)

وهنا تجدر الاشارة إلى أن اختيار "التيار السيميوطيقي" كنموذج في تحليل الخطاب مرده إلى أن هذا التيار هو "الاكثر صلاحية لتحليل الخطاب الشعري باعتباره محاولة تركيب لنظريات لغوية مختلفة، وباهتمامه بالتركيب وبالمعنى، وبالتفرقة بين القول والمقال والجمع بين اللسانيات التشومسكاوية والتداولية، وتعدد الوظائف بما فيها من تفاعل وتواصل." (58)

وفي آخر المستويات، تناول الباحث "المقصدية" كمفهوم أوجده الظاهراتيون والتداوليون وفلاسفة اللغة، وهي مسألة اهتم بها (علم التشريح)، كما تعرض إلى بعض المعالجات اللسانياتية الحديثة ضمن بعض التيارات. (59)

هكذا ينهي الباحث دراسته محاولا إظهار منهجه المركب، في قسم تطبيقي، من خلال نص (رائية ابن عبدون).

على العموم، فالكتابان المؤلفان خلال هذه المرحلة، "خلقتان نموذجيتان في خاصية الانتقال من داخل النص إلى خارجه، إلى إمكانية التأويل، "حيث يؤكد الكتاب الاول على مأساوية الخطاب، الشعري تلفيظا في معجمه وتركيبه ودلالاته النصية، ويؤكد الكتاب الثاني أكثر على هذه المأساوية في تعالقها مع مأساوية الرؤية الشعرية." (60)

2. المرحلة الدينامية:

وبغية تاسيس منهجي ذوكفاءة نقدية واضحة المعالم، انتقل "محمد مفتاح" في مسعى كبير إلى سبيل علمنة منهجية أكثر، فأصدر كتابه – دينامية النص- تنظير وإنجاز- دراسة حاول من خلالها الجمع بين التراث والحداثة، بين التنظير والممارسة التطبيقية، معتمدا على الكثير من إجراءات المنهج السيميائي. ساعيا إلى "تنويع طبيعة النص على مستوى جنسه الأدبي، ومن ثمة الجمع بين قراءة النص الشعري والنص الصوفي والنص القصصي، ثم النص القرآني بالتدريج." (61)

على أن الدينامية(62) هي جوهر الاشكال في هذه الممارسة النقدية التحليلية، لما تحويه من قوانين ونظريات متعددة التي على أساسها ينهض التراث النقدي العربي، وهي التي تؤسس لبنة نظرية عربية حديثة. على اعتبار، أن الخطاب لا يخلومن قيمة بعيدا عن هذا المفهوم، لأن الجمل داخله، هي امتداد لما سبقها ولما قبلها والنص "ينبني على عناصر مثل البساطة والتعقيد والسكون والدينامية، والتوازن واللاتوازن، الانفتاح والانغلاق والاستقرار والتحول." (63)

ولغرض تلخيص مبررات اعتماده على هذه الآلية في معالجة النص الأدبي أضاف محمد مفتاح قائلا "وظفنا الدينامية لأنها تكشف عن الابعاد العلمية للمفاهيم الرائجة وأبعادها الانطولوجية والايديولوجية، والميتافيزيقية، وتكشف أيضا عن ديناميات عديدة، من خلال هذا المفهوم، دينامية النظريات والمفاهيم، وديناميات القراءة، ودينامية الظواهر ومنها ايضا دينامية النص" (64)

وفي مساق الوقوف على دلالة هذا المفهوم أضاف "مفهوم الدينامية كوني فهو موظف في البيولوجيا وفي الفيزياء، وفي علم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي. وفي العلوم الاجتماعية، والانسانية، بيد أن درجة الدينامية تختلف من مجال معرفي إلى مجال معرفي آخر. فقد تكون بطيئة وقد تكون سريعة وقد تكون عشوائية." (65)

وخارج هذا التحديد المفاهمي للدينامية، فقد سجلنا استهلال الباحث ممارسته العملية بالكشف عن الخلفيات الابستيمولوجية، والتاريخية والتداخل الحاصل بينهما، وديناميتها،

والاسس العملية التي تتبني عليها، مشيرا إلى منهجه بالقول "أن هذه الدينامية هي ما حاول المدخل أن يرصدها، ذلك أن ما نعثر عليه لدى "قريماس" من مفاهيم عملية لا تكاد تفصح عن هويتها، ركز عليه الكارثيون والبيولوجيون والمشغلون بالذكاء الاصطناعي." (66)

وبذلك اعتمد التركيب بين جميع التيارات المعتمدة في تحليل النص ديناميا، محذرا من الخلط بين المناهج، لأن كل خطاب يستحط في هذا التصور يوصف باللامنهج وبالخلط والتوفيق والتكامل التلفيقي(67). كما حذر من الوهم وواحدية النظرة في التصور.

هكذا تجلت أولى بوادر هذه النظرة، في دعوته إلى المعرفة العميقة، والاستعمال التاريخي لأدوات القراءة الاجرائية ومقولاتها المجردة، حيث "سلك المنهج السيمياتي كمنهج يمتلك الامثلة الاجرائية، ومنهج لا يقبل الاحكام المسبقة، ولا الطرح الجاهز، وليس بطفرة القراءة كلها ولا الانتقاء القاصر غير الواعي" (68)

ولتوضيح معالم هذا المنهج، عرض "محمد مفتاح" أهم النظريات والمفاهيم المعتمدة في التحليل واقفا عند خلفياتها الابستمولوجية، وأسسها العملية أهمها:

الاتجاه السيميوطيقي:

ومن مكوناته الاساسية نظرية "المقصدية"، لأن "هذا المفهوم أساس كل عمل وفعل وتفاعل، وهي شرط ضروري لوجود اي عملية سيميوطيقية." (69)

ضمن هذا التيار، تناول الباحث "المربع السيميائي اعتمده عن سيميوطيقا "قريماس"، لتحقيق بعض الغايات في دراسة علاقات التضاد وشبه التضاد والتناقض مؤكدا دعائم هذا التبني الاجرائي بالقول إن "التعارض الذي رايناه في علاقات المربع المذكور متطلقة وجوهره الاختلاف والائتلاف"(70) ثم أضاف أن — "المربع السيمياتي" لم يصبح وسيلة عيان تساعد على الفهم وحسب وإنما صار شكلا هندسيا يصبح توليد مفاهيم منه لصياغة نظرية تعتمد على الطوبولوجيا والعلاقة والاختلاف والائتلاف- " (71)

1. **النظرية الكارثية:**

وهي النظرية التي تستمد إشكالياتها وخلفياتها من نظرية "قريماس".و من خلالها، لم يلم بأهم خطوطها العامة الرئيسة، مكتفيا ببعض أوجه مناقشتها "لقريماس" وافكاره، وهي المناقشات التي رصدها ضمن، مرحلتين جوهرتين هما"

2. **مرحلة رونيه طون** (RENE Tom) (72)

ومن خلالها، ناقش بعض القوانين المحددة للشكل والبنية والدينامية التي أوجدها (رونيه طون)، مشيرا إلى كون هذه الاسهامات تشكل تعميقا لما فعله (بروب)، في مورفولوجيته، و"قريماس" في مربعه وآخرين مثل "دوميزيل وليفي ستراوس." (73)

1. **مرحلة بتيطو– كوكوردا** (*JEAN PEITITO COCCORDA*)

ضمن هذا المعطى المنهجي، أشاد "محمد مفتاح" بما قدمته هذه المرحلة من تطعيم لكتابات (رونيه طوم) بأبعادها الفلسفية الابستيمولوجية، وعلى ما أضافه "كوكوردا" في موضوع الدينامية، مشيرا إلى مصادرها مثل (البنيوية العالمية والسيميولوجية) (74)

3. **نظرية الشكل الهندسي:**

في هذه النظرية التي أراد لها أصحابها أن تحطم الحدود الفاصلة بين اللسانيات والعلوم البحتة ، ركز الباحث على ثلاثة قضايا أساسية متلازمة: (75)

العلاقة بين بيولوجية الكائن الانساني وتطوره اللغوي.

الشكل الهندسي (Geomdrizer)

الديناميةdynamisme

هذه المراحل الاساسية الثلاثة ، هي التي تضبط الدينامية وقواعدها، وتختلف المفاهيم وتنظيمها وصياغتها.

ففي نظرية الحرمان مثلا، استنتج "محمد مفتاح" الكثير من الافكار من بعض الكتابات مثل أفكار (جان ماري برادي Jean Marie Pradies) أحد الباحثين الذين طوروا السيميوطيقا، ودرسوا العلاقات الوثقى بينها وبين البيولوجيا، ومن خلالها أشار إلى العلوم الاخرى مثل البيولوجيا والفيزياء والميكانيكا، كعلوم لها علاقات بالسيميوطيقا. بيد أنه، اشتغل في ذلك أساس منهجين هما:

1- خلاصة ما قرأ في آراء (برادي).

2- التوفيق بين الاراء والنظريات.

نظرية الذكاء الاصطناعي:

وهي خلاصة تمازج مجموعة من النظريات البيولوجية والمعلوماتية النفسانية والاعلامية، عاد إليها "محمد مفتاح" لتدعيم منهجه النقدي مركزا على بعض مفاهيمها الاساسية مثل (الاطار، المدونة، الخطاطات، والحوار) ثم أضاف قائلا "إن هذه النظريات جميعها بما تركز عليه من بينات ثابتة معطاة، وتتال وكلية واختزال وسحب تجعلنا نتساءل، الا يمكن للمتلقي أن يتعرف على الاطار، الا إذا كان على علم سابق به." (76)

كما لخص أهم المناهج والمفاهيم التي تنضوي تحت هذه النظرية وهي:

"علم البيولوجيا، علم النفس المعرفي، وعلم النفس الجشتطالتي، نظرية اللسانيات التحسيبية، نظرية البنيوية الدينامية (قريماس، بتيطوبالمر)" والتي تشترك جميعها في هاجس مشترك هو البرهنة على انسجام النص. (77)

4. نظرية التواصل والتعامل:

تعتمد هذه النظرية على الدينامية والتفاعل، وهي "توليد نظريات مختلفة، إذ تنتقي من نظرية العمل التاريخي والاجتماعية، تمنح من نظرية الافعال الكلامية، ونظرية اللعب اللغوي وغيرهما." (78) ومن هنا عدها "محمد مفتاح" محطات منهاجية في ممارسته النقدية، إذ تشترك جميعها في مناحي واحدة اجتماعية ولسانياتية وسيميائية وعلمية، كما تشترك في موضوع واحد هو "دينامية النص".

وانطلاقا من العرض التحليلي، سعى الباحث إلى فحص الاسس الفلسفية والابستيمولوجية لهذه النظريات، مقتربا من نظرية "غريماس" بجميع إجراءاتها ومفاهيمها، ومصطلحاتها التي تشكل أسس الدرس السيميائي، مستخلصا أهم الثوابت المهيمنة على تفكير أصحابها مثل:

أ. **المقصدية:** مفهوم إستمده من التداوليين وفلاسفة اللغة، فيه تعد "كل جملة لغوية أو (نص) وراءها مقصدية أولى تتجلى في بعض الحالات." (79)

ب. **الفضاء- الزمان:** مفهوم نقدي تبناه الباحث لتوليد المفاهيم وفضاء النظريات(80)، ومثالها المربع السيميائي لـ "غريماس"، كعملية عيانية (Visualisation) تساعد القارئ على الفهم.

ج- **إعادة الانتاج (الابداع)**، ومن خلالها عد محمد مفتاح بعض الآراء التي ترى السلوك الانساني مجرد وعاء لبعض ما تختزنه الذاكرة (81)

د- **الهيمنة** – الجدال: تناول الباحث من خلالها مسألة تفاعل الانسان مع المحيط، وتفاعل النص مع نفسه وتفاعل المرسل (الباث) مع المتلقي، وتفاعل هذا الاخير مع النص (82).

هـ- **المشابهة** – التفرد: ومن خلالها إنتهى "محمد مفتاح" إلى نتيجة اشتغال الباحثين في الرياضيات واللسانيات والسيميائيات واهتمامهم بها.

و- **الظهور – الكينونة:** ركز فيها الباحث على اجتهادات المدارس اللسانياتية الحديثة في إظهار كينونة النص، عن طريق دراسة العلامة والايقون والرمز.

ومن المفاهيم اللسانياتية الاخرى التي يمكن الاشارة إليها في دراسة الباحث نذكر:

1-الالتحام: منه استقى عنصرا التضيد والتنسيق. حيث يشكل الاول مجموعة من الجمل التي وجد فيها الباحث أدوات العطف ومختلف الروابط الاخرى التي تعلق جملة بجملة، في حين أن النسق هو العلاقات المعنوية والمنطقية بين الجمل حين لا تكون هناك روابط ظاهرة بينها. (83)

2- الانسجام: حيث أكد فيه الباحث على أن كل نص منسجم بدأ للقراءة السطحية هوضويا وعبثيا وغير ملتحم الاجزاء.(84)

وعند التدرج في مستويات الدراسة، تظهر الاجراءات السيميائية من خلال تحليل الباحث لقصيدة "الغابر الظاهر" لأحمد بوزفور، ثم الوقوف عند منظريين غربيين من التحليل: أحدهما أفقي والثاني عمودي.

ولتوطيد صلابة هذا التحليل السيميائي عمد إلى آلية الحوارية، بوصفها مفهوما يقابله في السيميائيات الحديثة (التناص)، معتمدا على (الحوار الخارجي) و(الحوار الداخلي) وتفصيلاته بالممارسة التطبيقية.

كما تناول في الفصل الثالث، دراسة نموذج شعري آخر، للأستاذ "محمد الخمارالكنوني" "قصائد إلى دائرة ذاكرة من الرماد، من منظور مفهوم" الحوارية" مبرزا جزئياته.

وفي الفصل الرابع، دعم ممارسته النقدية بالتركيز على (المربع السيميائي)، في تحليل النص الصوفي وفي آخر الفصول، إتجه إلى تبيان، الاتجاه الحواري النصي والمنهاجية الموحدة. متمثلا نفس الاجراءات والتيارات اللسانياتية السابقة على نصوص مختلفة، شعرية قديمة وحديثة، سردية، صوفية وقصصية، هادفا إلى وضع ركائز لجمالية التلقي ونظرية النص.

والخلاصة التي يجدر بنا ذكرها هي أن المنهج السيميائي لدى محمد مفتاح يظل منهجا متطورا باستمرار مفتوحا على التجديد، يتوفر على الكثير من الاليات والتقنيات الموظفة وتوظيفا إنتقائيا تلفيقيا، وهو منهج وفر له الالمام بجميع الخلفيات الابستمولوجية والتاريخية للنظريات التي حلل في ضوءها الاعمال الابداعية.

الإحالات

(1)- شايف عكاشة – إتجاهات النقد المعاصر في مصر – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر- ص: 1988

(2)- بشير القمري – قراءة محمد مفتاح ص 01

(3)- محمد مفتاح – التجربة النقدية في ظل التيارات العالمية المعاصرة – حوار أجريناه ونشر ضمن جريدة الرأي – الجزائر، العدد 86 أوت 1988

(4)- محمد مفتاح- في سيمياء الشعر القديم – دراسة نظرية وتطبيقية – دار الثقافة – الدار البيضاء 1989 ص 05

(5)- بشير القمري – قراءة محمد مفتاح في سيمياء الشعر القديم ص 04

(6)- محمد مفتاح – في سيمياء الشعر القديم ص 11

(7)- المرجع السابق ص 14

(8)- نفسه ص 21

(9)- في مجال "التوفيق" مثلا، يتخذ بعض الباحثين "مواقف عصرانية تدعوإلى تبني النموذج الغربي المعاصر بوصفه نموذجا للعصر ككله، وآخرون يتخذون مواقف سلفية تدعوا إلى إستعادة النموذج العربي الاسلامي، وهناك آخرون يتخذون مواقف إنتقائية تدعوإلى الاخذ بأحسن ما في النموذجين، والتوفيق بينهما في صيغة واحدة تتوافر لها الاصالة والمعاصرة معا" لمزيد من الاستفادة ينظر: محمد عابد الجابري – إشكاليات الفكر المعاصر – مركز الانماء القومي – دراسات الوحدة العربية – ط2، ص: 15- 16

(10)- ينظر: زبير دراقي – محاضرات في اللسانيات التاريخية والعامة، ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر 1990.ص: 18- 87

(11)- ينظر: فرديناند دي سوسير – دروس في الالسنة العامة – ترجمة صالح القرمادي وآخرين – الدار العربية للكتاب – تونس.ص: 111- 112

(12)- محمد مفتاح – في سيمياء الشعر القديم.ص:35

(13)- المرجع السابق. ص: 36- 37

(14)- نفسه.ص: 39

(15)- (16)- نفسه. ص: 41

(17)- نفسه.ص45

(18)- لأن التركيب "في المنظور الاسلوبي ظاهرة تقوم على ظاهرة إبداعية سابقة، وهي الاختيار، وفيها يصبح الاسلوب يشكل شبكة تقاطع العلاقات الجدولية". لمزيد من الاستفادة ينظر: نور الدين السيد – الاسلوبية وتحليل الخطاب – ج1.ص: 168

(19)- ينظر: محمد مفتاح –في سيمياء الشعر القديم. ص: 45

(20)- المرجع السابق.ص:46

(21)- نفسه. ص: 48

(22)- نفسه.ص: 53

(23)- وظائف الاتصال كما حدّدها "رومان جاكوبسون"، هي (الوظيفة الانفعالية التعبيرية، الوظيفة المرجعية، الوظيفة الافهامية الايعازية، الوظيفة الشعرية ووظيفة التنبيه)- لمزيد من الاستفادة ينظر مثلا: بير جيرو– علم الاشارة – السيميولوجيا – ترجمة منذر عياشي – دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر –ط1- دمشق – 1988 – ص: 30- 33

(24)- ينظر: محمد مفتاح – في سيمياء الشعر القديم. ص 56

(25)- المرجع السابق. ص: 58

(26)- نفسه.ص: 61

(27)- نفسه.ص: 82

(28)- نفسه.ص: 107
(29)- (30)- نفسه.ص:108
(31)- نفسه.ص:108- 111
(32)- محمد مفتاح – التحليل السيميائي – أدواته وأبعاده. ص: 29
وهي العناصر التي تنضوي ضمن تيارات لسانية مثل (التيار التداولي، التيار السيميوطيقي- التيار الشعري).
(33)- ينظر: محمد عزام –النقد والدلالة.ص: 106
(34)- ينظر: محمد مفتاح- التحليل السيميائي – أدواته وأبعاده. ص: 15
(35)- المرجع السابق.ص: 14- 15
(36)- محمد مفتاح – التجربة النقدية في ظل التيارات العالمية المعاصرة. حوار أجرينا – جريدة الرأي – يومية – الجزائر. العدد 86 أوت 1998.
(37)- محمد مفتاح- تحليل الخطاب الشعري – إستراتيجية التناص – المركز الثقافي العربي- المغرب- ط2- 1986.ص:07
(38)- المرجع السابق. ص: 08- 15
(39)- ينظر: محمد مفتاح- التحليل السيميائي – أدواته وأبعاده. ص: 15
(40)- المرجع السابق.ص: 08- 15
(41)- ينظر: محمد مفتاح- تحليل الخطاب الشعري. ص:20
(42)- المرجع السابق.ص:31
(43)- نفسه. ص:32
(44)- نفسه. ص:56
(45)- نفسه. ص:61
(46)- نفسه. ص:57
(47)- نفسه. ص:58
(48)- نفسه. ص:81
(49)- نفسه. ص:119
(50)- محمد مفتاح – التحليل السيميائي – أدواته وأبعاده.ص: 23
(52)- محمد مفتاح – تحليل الخطاب الشعري – ص:135
(53)- المرجع السابق. ص: 138
(54)- نفسه. ص:139
(55)- نفسه. ص: 146
(56)- نفسه. ص: 147
(57)- نفسه. ص: 150
(58)- نفسه. ص: 162
(59)- من أبرز هذه التيارات يذكر الباحث: تيار كرايس ومدرسته وتيار سورل في "المقصدية" لمزيد من الاستفادة ينظر: محمد مفتاح تحليل الخطاب الشعري –. ص:164- 165
(60)- بشير القمري – قراءة محمد مفتاح (مخطوط بقلم الباحث). ص: 05
(61)- المرجع السابق.ص: 05
(62)- والدينامية – (Dynamisme) عمليا: تعدد دينامية مساهم أو مؤسس مشروع ما قدرته وحيوية وبساطة وأخيرا فعاليته، وفلسفيا المذهب الذي لا يعتمد في العناصر المادية الا على تكاثف القوى والجهود. لمزيد من الاستفادة ينظر مثلا:
Dictionnaire encyclopédique. Larousse. Librairie Larousse. Paris 5°, 1979 (Dynamisme) P:□

أما في مجال التحليل النفسي، فإن مصطلح (ديناميي) صفة من اللفظ الفرنسي (Dynamisme) وفي الانجليزية (Dynamic) والالمانية (Dynamich)، ويصف وجهة النظر التي تدرس الظواهر النفسية باعتبارها نتاجا للصراع، ولتركيبة القوى ذات المنشأ النزوي التي تمارس نوعا من الاندفاع "لمزيد من الاستفادة ينظر: جان لابلانش وبناليس – معجم مصطلحات التحليل النفسي – ترجمة مصطفى حجازي – ديوان المطبوعات الجامعية – المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر والتوزيع – ط1 1985 .ص:248

(63)- محمد مفتاح - النقد بين المثالية والدينامية – مجلة الفكر العربي المعاصر.ص :21- 22

(64)- محمد مفتاح – التجربة النقدية في ظل التيارات العالمية المعاصرة – حوار أجريناه – جريدة الراي – الجزائر – العدد أوت 1998

(65)- المرجع السابق

(66)- محمد مفتاح – دينامية النص – تنظير وانجاز – المركز الثقافي العربي – (لبنان)- المغرب – ط2- 1987 .ص:06

(67)- ينظر: أحمد يوسف – الخطاب السيميائي واللسانيات الحديثة – مجلة ككتابات معاصرة – بيروت (لبنان) العدد 14- المجلد الرابع – ايار – حزيران 1992 .ص:51

(68)- المرجع السابق. ص: 120

(69)- محمد مفتاح دينامية النص. ص: 09

(70)- المرجع السابق. ص: 120

71)- نفسه. ص: 11- 12

(72)- في هذا السياق، لا يعدّ "رونية توم المتحصل على ميدالية فيلدز (Fields) عام 1965م رياضيا وحسب – بل هو كذلك فيلسوف يتساءل عن دور الرياضيات في المعرفة وحياة النص، ونظرية الكوارث،التي ابتكرها لتفسير الظواهر المنفصلة والتنبؤ بها، وتطبيقها في علم الاجتماع والالسنية".

لمزيد من الاستفادة ينظر: فلسفة الرياضيات، نظرة الكوارث، من الشعر إلى السحر، حوار: رونية توم وجان ماندليوم – مجلة ككتابات معاصرة – بيروت – العدد 26 مجلد 7 إذار 1996 .ص:109

(73)- ينظر: محمد مفتاح – دينامية النص. ص:13

(74)- المرجع السابق .ص:15

(75)- نفسه.ص: 19- 120

(76)- (77)- نفسه ص:28- 29

(78)- نفسه.ص:30

(79)- نفسه.ص:50

(80)- نفسه.ص:33

(81)- ينظر: أحمد يوسف – الخطاب السيميائي واللسانيات الحديثة ص: 56

(82)- ينظر: محمد مفتاح – دينامية النص. ص:41- 42

(83)- (84) نفسه.ص:44